ملخص لدراسة

انهيار العرب

إصدار مركز ديان للدراسات الشرق أوسطية
والإفريقية الإسرائيلي - جامعة تل أبيب
خريف ٢٠٠٣م

ملخص لدراسة
انهيـار العـرب
إصدار (مركز ديان .جامعة تل أبيب) خريف ٢٠٠٣م

تمهيد:

لقد أظهر احتلال أمريكا للعراق مدىٰ ما آل إليه النظام العربي من تفكك وانهيار، وفي هذا البحث الذي أصدره (مركز ديان للدراسات الشرق أوسطية والإفريقية الإسرائيلي)، وهو مركز تابع لجامعة تل أبيب؛ نرىٰ هذا الانهيار بعيون وعقول إسرائيلية، وهو في الأصل محاضرة ألقيت في مايو ٢٠٠٣م أمام محلّلين في وزارة الخارجية الإسرائيلية.

ولا يخفىٰ علىٰ القراء دور هذا البحث وأمثاله في ترسيخ فكرة الشرق أوسطية الجديدة، أو مشروع (الشرق الأوسط الكبير) الذي بدأ يبشر به بوش كنتيجة لإخفاق النظام العربي وانهياره.

ملخص الدراسة (انهيار العرب):

يبدأ الباحث الإسرائيلي «آشير سوسير» دراسته (انهيار العرب) بالاستشهاد بقول عزمي بشارة ـ وهو مفكر فلسطيني بارز ـ: (إنّ العرب في حالة متضاعفة من الانحطاط الذي يربك كافة العقول، حتىٰ عقول أولئك الذين كانوا يتوقعون أن يكون الصيف الماضي شديد الوطأة علىٰ العرب بعد انتهاء الحرب، وستكون الأمة العربية مقسمة بين أولئك الذين يدورون في فلك صدمة الفضيحة والهزيمة، وأولئك الذين سيبادرون إلىٰ تفجير أنفسهم فيما يعتبرونه واجباً دينياً يعلو صوته فوق صوت كل شيء).

ثم يمضي «سوسير» كاتباً: في نصف القرن الماضي الذي حصلوا خلاله علىٰ الاستقلال؛ مني العرب بهزائم متكررة ومتلاحقة علىٰ أيدي أعدائهم، حيث تعرضت الجيوش العربية للذل الرهيب فيما يُسمَّىٰ بـ (النكبة) عام ١٩٤٨م، ثم بعد ذلك تمت هزيمتهم في حرب الأيام الستّة عام١٩٦٧م، حتىٰ النصر الذي كاد أن يلوح لهم لم تلبث إسرائيل إلا أن خطفته منهم في عام ١٩٧٣م، ثم بعد ذلك واجه العرب فجيعة تشتيت وإذلال أكبر جيش عربي من قِبَل الولايات المتّحدة في عام ١٩٩١م.

إن العرب كانوا في شوق لأي نصر عسكري، وعندما جاء مارس الماضي حدّث العديد منهم أنفسهم بأن النصر المأمول يمكن أن يكون علىٰ بعد خطوات.

في الأيام القليلة الأولىٰ للحرب في العراق؛ بدا كما لو أن العراقيين يؤدون عرضاً يستحق الإعجاب في مواجهة الولايات المتّحدة المتفوّقة بشكل كلي، وكذلك ضد القوّات البريطانية، ولاحت الأماني بأن التوقعات

التي تحدثت عن حدوث انهيار عراقي سريع وكأنها تتبخر في الهواء، وأصبح المراقبون العرب لا يسأمون من صبّ ألوان المديح على القوّات العراقية التي ظهر وكأنها ستعيد الشرف العربي الضائع، وكما عبَّر أحد المعلقين العرب؛ فإنه لم يكن من المهم على الإطلاق ما الذي يمكن أن يعنيه تقدّم الجيش العراقي، وأصبح المتفق عليه أن حكم الدكتاتور عديم الرحمة للعراق ما دام يمثل الروح الصامدة والمقاومة؛ أفضل بكثير من أية ديمقراطية عراقية مهزومة.

إلا أن نشوة هذه الأماني سرعان ما انطفأ نورها ولم تدم لوقت طويل، فالقوّات العراقية انهارت فجأة وتقوّضت بالكامل، وخضعت لضعف العزيمة وانكسار الروح القتالية السيّئة، وبسبب ما فعله وزيرهم المغرور المختص بالإعلام «محمد سعيد الصحّاف» أصبحوا هدفاً دولياً لكل من يرغب في السخرية والتندر، وانقلبت مشاعر الفخر التي سادت في البداية لدى العرب؛ إلى حالة من اليأس والصدمة عندما شاهد العرب والعالم أجمع مشهد المواطنين العراقيين الذين لم يخفوا سعادتهم بإسقاط زعيمهم ولو عن طريق غزو أجنبي.

وبسبب مشاعر الخزي والعار التي لطختهم لم يستطع العرب فعل أي شيء لمنع ذلك المشهد.

بعض الدول العربية ساندت الولايات المتّحدة بشكل واقعي ملموس؛ والدول الأخرى اتخذت موقفاً سلبياً تماماً.

حتى الشارع العربي أصابته حالة من الصدمة المفجعة؛ لدرجة أن المظاهرات ضد الولايات المتحدة التي شهدتها أوروبا، على الرغم من أن الحرب قد تم التخطيط لها على أرضها، كانت أضخم وأعظم بكثير من مثيلاتها في العواصم العربية، ولم تبق إلا أجهزة الإعلام العربية مثل الجزيرة وغيرها هي فقط التي ظلت تحمل رسالة التضامن العربي التي أصبحت لا تثير إلا التهكم.

ومع الوصول بأن العرب ليسوا إلا ظاهرة تعبّر عن أصوات لا فائدة لها ولا تأثير؛ فإن هذه المقالة يمكن أن يكون عنوانها (انهيار العالم العربي)، لكن مجرد الإشارة إلى مصطلح «العالم العربي» هو في حد ذاته يعتبر خطأ من الناحية التاريخية؛ فإن كان هذا المصطلح «العالم العربي» المقصود منه الإشارة إلى دول عربية تنتظم معاً في تحالف سياسي؛ فمن الواضح تماماً أنه سيكون هناك خطأ في التسمية.

إن ما يُسمّى بـ «العالم العربي» لم يعد له أي وجود في الحقيقة، بل إن هذا المصطلح لا يمكن أن تزيد دلالاته بأي حال عن الدلالات التي يمثلها مصطلح «أمريكا اللاتينية»، حتى إنه لم تعد هناك أية تحالفات بين الدول العربية موجهة ضدّ الآخرين؛ كما كان يحدث أحياناً في الماضي بين بعض الدول العربية.

إن «التجمع العربي» أو «العالم العربي» لم يعد يمثّل أي شيء سوى تشكيلة متباينة للغاية من مجموعة من الدول تعتمد كل واحدة منها على نفسها، وأغلبها تعقد تحالفاً شاملاً مع الولايات المتّحدة، والقليل جداً من هذه الدول ما زال ضد الولايات المتحدة. حتى الدبلوماسيون العرب أنفسهم؛ أقروا بأن مجرد الإشارة إلى أيّ شيء يمكن أن يوحي بما يُسمّى بـ «النظام العربي الموحد» أو «التجمع العربي» هو أمر غير واقعي تماماً. وأضحت

الدول العربية الـ ٢٢ ليست بينها أية سمات مشتركة؛ اللهم إلا ما يمكن أن يكون لا يزال باقياً من لغتهم العربية.

ولا بد من الإشارة إلى أن انهيار النظام العربي الجماعي لم يكن نتيجة لهزيمة صدّام، ولكن ما حدث بالأحرى هو أن الهزيمة المخزية لصدّام عرضت بشكل واضح الحالة التي وصل إليها العرب.

إنّ العرب يمرون بأزمة رهيبة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، حيث فقدت أغلب الدول العربية فرصة اللحاق بركب العولمة، كما أن هذه الدول تعاني من افتقاد القيادة؛ وهم في وضع لا يسمح لهم أبداً بتحديد أولوياتهم حتى على المستوى الإقليمي. وبعد الحرب التي قادتها الولايات المتحدة ضدّ العراق؛ أصبح العرب يدورون في هوة أشد عمقاً من الفوضى، ويغرقون فيها أكثر، وقد وصف «فؤاد عجمي» هذا الوضع قبل أكثر من عقدين بـ «المأزق العربي».

والمثقّفون العرب والمحللون هم أول من يدرك حجم «المأزق العربي»، وهم الذين يشيعون حالة اليأس الجماعي العميق. وإن عدم وجود قابلية لدى العرب على رسم أية معالم في خريطة الأحداث بالمنطقة؛ يتأكد دوماً من قِبَل الكتّاب العرب الذين لا ينفكون يُبدون الخوف بشكل علني من أن إسرائيل والولايات المتّحدة ستعيدان رسم خريطة الشرق الأوسط في المرحلة الحالية.

إن العرب ـ في وجهة نظرهم الذاتية ـ يعتبرون أضعف بمراحل مما كانوا عليه في أثناء الحرب العالمية الأولى؛ عندما قسّمت بريطانيا وفرنسا الشرق الأوسط في صفقتهما السرّية عام ١٩١٦م، والمعروفة باتّفاقية «سايكس ـ بيكو».

إنّ العجز الذي يحيط بجامعة الدول العربية ما هو إلا مجرد علامة واحدة على هذه الحقائق، فبعد الحرب في العراق ركن وزراء الخارجية العرب لفكرة ألا يجتمعوا على الإطلاق، وفي الحقيقة لم يكن هناك شيء يمكنهم أن يتخذوا القرار بشأنه.

وقد عبّر «محمد سيد أحمد» أحد مثقّفي مصر البارزين عن إحباطه من حقيقة أنّ العرب أصبحوا مغيبين تماماً عن التأثير في المحافل الدولية ومجريات الأحداث حالياً؛ على الرغم من حقيقة أنّ منطقة الشرق الأوسط هي إحدى المناطق الرئيسة في العالم.

إن «المأزق العربي» لم يبزغ قط منذ أن كشف «فؤاد عجمي» عن هذا المصطلح، والآن يقف العرب أمام طريق مسدود دون أن تكون هناك أدنى فرصة لعبوره خلال وقت قريب، وأما عن كيفية وصولهم إلى هذا الطريق المسدود؟ فالجواب أن ذلك نجم عن سلسلة متراكمة من القرارات والاختيارات الخاطئة، وكانت بداية ذلك مع بطل العروبة «جمال عبد الناصر».

إن العرب لم يجدوا أنفسهم عديمي الحيلة إلى هذه الدرجة إبان فترة قمة عظمة «ناصر» في الخمسينيات والستّينيات، حيث شارك رئيس مصر الصغير والواعد المؤثّر في قيادة دول العالم النامية (العالم الثالث)، وكذلك في قيادة حركة عدم الانحياز مع «نهرو» الهندي و«تيتو» اليوجسلافيّ.

وقد ظهر «ناصر» على المسرح العالمي بشكل لا يقل عن بقية الزعماء العظماء في عصره، وقد وضع جدولاً للأعمال على المستوى الإقليمي يهدف إلى إنهاء الوجود الغربي.

وكانت الجهود الرامية لتكوين حلف دفاعي معاد للسوفييت في الشرق الأوسط، والتعجّيل بالتصرف مع أزمة السويس؛ قد أجبرت الفرنسيين والبريطانيين على قبول تأميمه لقناة السويس.

وكنتيجة لذلك أصبح «ناصر» هو الزعيم الذي لا نظير له بالعالم العربي، وعلى مدى عقد من الزمان نشر رؤيته الشديدة الحماسة حول (الوحدة العربية)، و (الاشتراكية العربية)، و (التحالف مع الاتحاد السوفييتي) كدواء ناجع لآلام العالم العربي ولتجديد القوة العربية.

في عام ١٩٥٨م وقَّع «ناصر» اتفاقاً مع سوريا؛ ليصبح من الناحية العملية زعيماً على تلك البلاد. وكان نداء «ناصر» له جاذبية كبيرة، حتى إن الولايات المتحدة نفسها فكرت بجدية في ترك حليفها الأردن، وقد تولدت لدى واشنطن قناعة ـ مثلها مثل الجميع ـ بأنّ «ناصر» أضحى يمثّل الموجة التي يحتم المستقبل ظهورها. ثم بدأت علامات التماسك عند «ناصر» في الاختفاء في عام ١٩٦١م عندما تفكك الاتحاد الذي عقده مع سوريا.

وانزلق «ناصر» أكثر عندما تورطت مصر في الحرب الأهلية التي وقعت في اليمن؛ إلا أن الضربة النهائية لـ «ناصر» جاءت في ١٩٦٧م، حيث بعد ستّة أيام من الحرب مع إسرائيل تمزقت الناصرية، واتضح أن آمالها ووعودها البراقة الضخمة لم تكن أكثر من وهَمْ، ومنذ ذلك الحين بدأ الانهيار المتواصل للدول العربية.

ومع تمزق الناصرية وجد الإسلاميون فرصتهم ليعرضوا منهجاً أصولياً؛ بهدف الوصول من خلاله إلى الحداثة والتجديد بإلغاء العلمانية.

لكنّ سجلّ الإسلاميين الذي يتضمن «آيات الله» الرموز الشيعية في إيران، و «النظام العسكري» الذي استمد الإلهام في وجوده من الروح الإسلامية بالسودان، وكذلك «الطالبان» في أفغانستان، كان كله دلالات على الإخفاق المتكرّر.

ففي إيران، حيث لا يزال الإسلاميون يحكمون، جاء الجيل الجديد وهو يمقت النظام الحاكم أشد المقت، وكما يشير أحد الكتاب العرب؛ فإن الإسلاميين لم يقدّموا أية سياسة واقعية أو بدائل بخلاف الرؤية الاستبدادية الخاصة بهم.

وفي الحقيقة؛ فإن الإسلام الأصولي بدلاًمن ذلك؛ انحدر إلى طريق بديل لعرض أطروحته في التجديد، وانشغل في تحركات منبعها الغضب والرغبة في الانتقام؛ مما أنتج أعمالاً إرهابية شنيعة، وفي النهاية أخفق الإسلاميون في تعديل ميزان القوى تجاه العرب.

في حقبة السبعينيات؛ كان هناك في العالم العربي، وفي أماكن أخرىٰ، مَنْ يعتقدون أن سلاح النفط يمكن أن يكون الضمان العربي، ولكن هبوط أسعار النفط في الثمانينيات جعل الاقتصاد العربي يغوص في أزمة لا يزال الكثير حتىٰ الآن من الدول العربية يحاول التعافي منها.

إنّ مراكز القوة الحساسة في المشرق العربي المعاصر مصادر قوتها مشتتة، وهي القاهرة، والرياض، وبغداد، ودمشق.

إن مصر كإحدىٰ دول العالم الثالث الفقيرة؛ باتت تدرك بشكل مطرد الفجوة الواسعة بين صورتها كزعيمة إقليمية، وبين قوّتها الحقيقية القادرة علىٰ ممارسة أي دور في الأحداث الجارية في الشرق الأوسط، والحقيقة أنّ الفقر والقوّة لا يمكن أن يجتمعا.

المصريون يشتكون دائماً من عدم توزيع الثروات بشكل عادل بين العرب من ناحية، ويصرُّون علىٰ التعجيل بمسيرة الإصلاح الاقتصادي بمصر من خلال الخصخصة.

إن ضعف مصر يجعلها مسرحاً للتنافس الاقتصادي من قِبَل جيرانها، وعلىٰ سبيل المثال؛ فإن مصر تشعر بالقلق من أنه في عصر ما بعد صدّام ستضطر أن تتنافس مع الصادرات العراقية من الغاز الطبيعي، كما أن النظام الجديد المنتظر في العراق قد يكون متلائماً بشكل أكثر مع إسرائيل؛ وهو الأمر الذي يجعل كفة الميزان الإقليمي تميل بشكل أكبر ضدّ المصريين.

ومن الناحية السياسية؛ صارت الأوضاع في مصر مرهونة بالكامل مع الولايات المتّحدة، وهذا أيضاً دليل علىٰ ضعف مصر.

رغم تأثير هزيمة ١٩٦٧م بقي «ناصر» متحدّياً للولايات المتحدة، وفي ظل عهده تبنت القمّة العربية التي عُقدت في الخرطوم ثلاث لاءات تتضمن: رفض الاعتراف، ورفض التفاوض، ورفض أي سلام مع إسرائيل. ثم بعد ذلك بقليل؛ أطلق «ناصر» ما أصبح اليوم معروفاً بـ«حرب الاستنزاف» ضدّ القوّات الإسرائيلية علىٰ طول قناة السويس. لكن في هذا الوقت نفسه كانت الولايات المتّحدة مهيمنة علىٰ الأوضاع الدولية، وكان الخمود العربي قد بلغ مداه؛ مما جعل استمرار مثل هذا النمط الاستفزازي من جانب «ناصر» مسألة مستحيلة التصوّر.

ونعود إلىٰ الصورة في الواقع الحاضر؛ فنجد أن المصريين من أكثر المتعاونين، ومؤخراً شاركوا في ممارسة الضغط علىٰ «عرفات» للسماح بتشكيل حكومة «محمود عباس» (أبو مازن). وبالحماس نفسه بذل المصريون أقصىٰ ما يمكنهم لإقناع السوريين بعدم إغضاب الولايات المتّحدة.

وبشكل عام أصبح نشاط مصر السياسي مقروناً بالإذعان بدلاً من المجابهة.

وبعد احتلال العراق أصبح الوجود الأمريكي في الخليج موسعاً.

وفي ظل هذه الصورة العامّة التي تؤكد حالة الوهن العربي؛ كان بإمكان العراق أن يُحدث نوعاً من التغيير، وذلك لأن العراق دولة عربية لها وضع خاص، فهي ليست متخمة بالسكان، وتملك أسباب الثراء الكامل، والتقدم التقني. لكن صدّام اختار تسخير السلطة العراقية في مجابهات عسكرية عقيمة مع جيرانه، في البداية واجه إيران، وبعد ذلك توجّه صوب الكويت، وهو ما جعل العالم بأكمله تقريباً يقف ضده في حرب الكويت عام ١٩٩١م، حتى الدول العربية أيّدت واشنطن وتدخّلت الولايات المتّحدة لإعادة الأوضاع الإقليمية وفرضها بالشكل الموجود حالياً، وكانت هذه رغبة الدول العربية التي لم تحاول إخفاءها. والأزمة العراقية الحاصلة حالياً هي أمر مختلف جداً، فالولايات المتّحدة غزت العراق ليس من أجل الحفاظ على النظام الذي كان موجوداً ولكن لقلبه وتغييره.

وبشكل عام؛ فإن العرب حتى أولئك الذين كانوا سعداء لرؤية نهاية صدّام؛ انزعجوا بشدة من فكرة أن الولايات المتّحدة يمكنها تدمير أنظمة الحكم في الشرق الأوسط إذا رغبت في ذلك، وتهديد السلامة الإقليمية لأراضي كل الدول العربية، لكن واشنطن كانت لديها مخططاتها، والعراق أصبح بالنسبة لها أرض اختبار لتطبيق نظرياتها حول الديمقراطية.

بغداد كانت في يوم من الأيام عاصمة لإمبراطورية الخلافة في دولة العباسيين، ومركز الثقافة العربية في ظل حكم خلفاء شهيرين مثل «المنصور» و«هارون الرشيد» و«المأمون».

وفي العصر الحديث أصبحت بغداد لها من الثقل والأهمية ما يمثل تفوقاً على الهيمنة المصرية، وبدأت تمثل بديلاً لقلب العروبة النابض «مصر». وحتى فترة قريبة كانت بغداد، وهي مرتع لنظام صدّام، تمثل رأس الحربة في مواجهة التيارات الراديكالية والأصولية. وفي الوقت الحالي نجحت الولايات المتّحدة في طرد بغداد خارج الصورة تماماً بوصفها قوة في العالم العربي.

أما دمشق؛ فهي تعاني حالياً من العزل أكثر من أي وقت مضى، وهي كذلك محاطة تماماً من قِبَل بلدان متحالفة مع واشنطن أو محتلة من قِبَل الولايات المتّحدة أو حتى متعاطفة مع الأمريكيين، وهي (تركيا، وإسرائيل، والأردن، والعراق)، وتأتي حالة العزلة السورية بالتزامن مع سياسة الولايات المتّحدة الجديدة بشأن الحرب الاستباقية، وهي السياسة التي تسبّبت في نشر مناخ عام من الشكّ وعدم الأمان في الدول العربية بشكل عام وفي سوريا بشكل خاص.

على أي أساس ستنبني تقديرات الأمريكيين حول التهديد أو الخطر الوشيك؟ وما الدول والأنظمة التي قد توجِّه لها الولايات المتّحدة الضربة القادمة؟

السبق لغير العرب:

على الرغم من أنّ بعض العرب يؤكدون أن حرب واشنطن في العراق إنما تستهدف العرب بشكل عام؛ فلم يكن هناك الكثير مما يمكن أن يقوموا باتخاذه حيال ذلك. وعليه فإن الولايات المتّحدة لم ترغم على دفع أيّ ثمن إلى الدول العربية كمقابل لشنّ عمل عسكري ضدّ نظام صدّام حسين.

ولذلك فإن مبادرات الولايات المتّحدة الحالية في عملية السلام بالشرق الأوسط؛ لا تعد ثمناً يحصل عليه العرب الذين لا تعتبر واشنطن نفسها مدينة لهم. لقد كان العرب مستجيبين للمطالب الأمريكية بشكل يفوق كل تصور، وسعوا لإزالة كل المخاوف التي يمكن أن تكون لدى واشنطن وحليفتها الأوروبية لندن.

لقد لجأت الولايات المتّحدة لنشر «خريطة الطريق» من خلال اللجنة الرباعية الجديدة؛ من أجل وضع تصور لحل القضية الفلسطينية في البداية؛ لأن الرّئيس بوش كان يريد نجاحاً أوسع وأكبر في الشرق الأوسط، ليستطيع بعد ذلك أن يمرّر قراره بالدخول في حرب مع العراق، لكن الواقع الفعلي أن واشنطن ليست لها أية رغبة أو قدرة على فرض «خريطة الطريق» على جميع الأطراف.

ولا بد من تأكيد أن القلق الأوروبي على مصالح الدول العربية واللهجة الأوروبية المؤيّدة للعرب ـ فيما قد يبدو على السطح أحياناً ـ، هما نتاج الضعف العربي الواضح، وليسا نتيجة وجود نفوذ أو تأثير عربي بأي شكل من الأشكال. إن بعض من ينتمون إلى حزب العمال البريطاني اليساري لديهم تعاطف مع دول العالم الثالث، وهذا التعاطف بشكل عام مع العرب، وبشكل خاص مع الفلسطينيين حتى على حساب الإسرائيليين، وهذا قد ينطبق على بعض الجهات الأوروبية الأخرى كذلك.

لكن رغم هذه الشفقة على العرب؛ فإن الأوروبيين بدؤوا يُشهرون السيف وبقوة في مواجهة الهجرة العربية المتزايدة إلى أوروبا.

إن الأوروبيين ـ كما هو موضح في المقال الأخير الذي أعده «جورج باباندريو» و«كريسباتن» ـ يبدو أن لديهم قناعة بأنه لو تم حل القضية الفلسطينية الإسرائيلية؛ فإنه ستكون هناك إمكانية كاملة لتفعيل التعاون في منطقة البحر الأبيض المتوسط؛ وذلك لأن البلدان العربية ستكون قادرة على التقدم للأمام نحو صياغة شكل صحيح للإصلاح الاقتصادي، ومن ثَمَّ الوصول إلى الازدهار في النهاية.

مثل هذا التقدم الممكن حدوثه في حالة الوصول إلى حل للقضية الفلسطينية؛ سيقلل بالتأكيد من الضغط السكاني القادم من الشرق الأوسط على الهجرة إلى أوروبا.

الأوروبيون يميلون إلى العرب ليس بسبب تأثير النفط العربي أو قوّة الأسواق العربية، ولكن بسبب الحالة التعسة والمأساوية التي تمر بها المجتمعات العربية، والتي قد يكون لها تأثير خطير وسلبي في النسيج الاثني والعرقي في أوروبا خلال الأجيال القادمة.

ويلاحظ أن حالة الانهيار العربي جعلت الدول الإقليمية غير العربية في الشرق الأوسط، مثل إسرائيل وتركيا وإيران، تصبح أكثر قوة.

فإسرائيل بسبب قوّتها العسكرية والاقتصادية لديها قابلية النجاح، والمهارة التقنية العالية، وهي الدولة الشرق أوسطية الوحيدة التي نجحت في ركوب قطار العولمة، وشاركت الديمقراطيات الغنية في الغرب.

وأما تركيا التي كانت مركزاً للإمبراطورية الإسلامية السابقة؛ فإن لديها مساحة الأرض الشاسعة، وعدداً كبيراً من السكان، كما أنها قويّة عسكرياً، ولها وضع حيوي من الناحية الجغرافية السياسية، وهي دولة متغربة علمانية لديها قدرات اقتصادية ضخمة.

وإيران ـ التي هي إلى حد ما أقل ميلاً نحو الغرب ـ لديها العديد من المميزات التي تتمتع بها تركيا من الناحية الجغرافية والسياسية، وتُعَدّ قوة إقليمية؛ خاصة إذا ما أضيف لذلك امتلاكها للثروة النفطية، والتأثير القوي والضاغط الذي يمثله الشيعة العرب، ودلائل القوّة التي يحصلون عليها في بلدانهم.

إن الطريقة التي أدار بها نظام صدّام الحكم في العراق أدت إلى سحق الوضع الذي كان يتمتع به السنّة الذين كان لهم موقع القوّة، وذلك للمرة الأولى في تاريخ البلاد، وأدى أسلوب حكم صدّام في النهاية إلى رفع الشيعة ومنحهم القدرة على الاستفادة من المنافع الغربية والأوروبية.

العراق له الآن أهمية استراتيجية لإيران لم يسبق لها مثيل، ولكن هذا لا يعني وجود سيطرة إيرانية على العراق، أو حتى وجود رغبة لدى الشيعة العراقيين أن يُحكَموا من قِبَل إيران، لكنّه يعطي الإيرانيين إمكانية أن يكون لهم رأي في مصير العراق، وهو أمر لم يكن متاحاً للإيرانيين في السابق، وستصبح إيران نتيجة لذلك هي القوة الإقليمية الوحيدة في الخليج الفارسي.

العراق الآن خارج حلبة المنافسة، هذا في الوقت الذي يزداد فيه نفوذ إيران في لبنان من خلال (حزب الله) الواثق بنفسه والذي يعرف أهدافه، وزاد هذا النفوذ بعد أن بدأت القبضة السورية على لبنان تتراخى في ظل السلطة غير الحاسمة عديمة الخبرة التي يمثلها بشّار الأسد. إن القوة الجديدة التي تكتسبها إيران ظهر كدليل رمزي عليها ما حدث في منتصف شهر مايو ٢٠٠٣م؛ عندما قام الرئيس«محمد خاتمي» بالزيارة الأولى إلى لبنان، وهي أول زيارة من قِبَل رئيس إيراني للبنان منذ ١٩٧٩م تاريخ قيام الثورة الإسلامية.

بعض العرب يتكلّمون عن تحديث جامعة الدول العربية؛ بينما يروّج الرّئيس بوش لخطّة تدعو إلى إيجاد منطقة تجارة حرّة شرق أوسطية، كل هذه الأفكار لن تثمر أية نتيجة، لكن كلاهما يتعامل بناء على وضع إيران وتركيا في إطار إقليمي جديد أصبح يفرض نفسه بعد الحرب في العراق، ففي أواخر أبريل ٢٠٠٣م لم يكن الاجتماع الذي تم عقده داخلاً في إطار جامعة الدول العربية، ولكن كان في إطار ما يُسمّى بـ (منتدى جيران العراق)، ودخلت في ذلك تركيا وإيران لمناقشة الأوضاع الجديدة، وكانت هناك مع تركيا وإيران الدول العربية

الجارة للعراق ومعها مصر ـ في إشارة إلى وضعها المتميز بالمنطقة ـ.

وكانت هذه المدلولات تأكيداً لتصاعد دور اللاعبين الإقليميين من غير العرب؛ على حساب الانحسار الجماعي العربي.

الدولة العربية الأنانية:

في تاريخ الدولة العربية الحديثة كان يونيو ١٩٦٧م يمثل حدّاً فاصلاً وحاسماً؛ لأن هذه الهزيمة المذلّة التي وجهتها إسرائيل للعرب كانت أكبر من مجرد نكسة عسكرية فقط، فقد بيّنت نتيجة الحرب إفلاس عالم الأفكار التي كان يدعو إليها «ناصر»، وأهم ما في ذلك إصراره الشديد الحماسة على تحقيق الوحدة العربية، والواقع أن تآكل الوحدة العربية ساهم في وجود شرعية للدول الإقليمية العربية بشكل منفرد، وأدى إلى قبول النظام الرسمي الإقليمي، ثم أصبحت السياسة العربية تبعاً لذلك أكثر واقعية وأقل أيديولوجية، فالشعوب العربية والنخب الحاكمة أرادوا ضمان حماية أمن كل دولة بأسلوب واضح ومكشوف.

وكان عهد «ناصر» يمثّل تكريس الجهود من أجل العروبة، وكانت مصر هي الضحيّة، فمصر أصبحت نصف «الجمهورية العربية المتّحدة» بعد أن توحدت مع سوريا، ثم بقيت مصر تعرف بالمسمّى نفسه حتى بعد انشقاق سوريا في عام ١٩٦١م، وبعد موت «ناصر» في ١٩٧٠م أعاد خليفته «أنور سادات» اسم مصر إلى «جمهورية مصر العربية»، ولم تكن هذه مجرد إشارة لفظية، ولكن كان هذا تغييراً وإعادة شاملة في توجيه سياسة مصر الخارجية إلى مبدأ «مصر أولاً»، وقد جاء ذلك على حساب التزام مصر بالقضية العربية بشكل عام.

وقد كان هذا التغيير هو الذي مهّد الطريق أولاً إلى حدوث حرب محدودة ضدّ إسرائيل، وبعد ذلك إلى إقرار السلام، ولم يكن دافع الاهتمام الرسمي المصري نابعاً من عقيدة؛ سواء كانت هذه العقيدة هي العروبة أو الاشتراكية أو غيرهما.

وكما تم تطبيق مبدأ «مصر أولاً» وأصبح توجّها سياسياً مقبولاً؛ كان على الفلسطينيين أيضاً عدم الشعور بالخجل عندما يقولون «القضية الفلسطينية».

وقد تحرك المصريون في مسار السلام بشكل منفصل، بعد أن شنّوا حربهم ضدّ إسرائيل، بدون استشارة إخوتهم في العروبة. وإخوتهم في العروبة؛ نتيجة لذلك تركوا الفلسطينيين يغرقون في معاناتهم بدون النظر إليهم.

هذا المناخ الجديد جعل الأردنيين يستطيعون تبنّي مبدأ «الأردن أولاً»، وشرع السياسيون في عمان في شنّ حملة علاقات عامّة محلية تحت هذا الشعار بدون الحاجة إلى توضيح سر التغير أو الاعتذار عنه، وكان مثل هذا السلوك مستحيل تصوره في السابق.

في حقبة الخمسينيات ومطلع الستينيات؛ كان يمكن للأوصياء على الوحدة العربية وصف من ينتهجون مبدأ «مصر أولاً» و«الأردن أولاً» بأنهم «انفصاليون» أو «خونة» متخلون عن القضية العربية.

لكن حتى في داخل كل دولة كانت هناك ولاءات متعددة تأكل في نسيجها، فالعراق الذي كان تحت حكم البعث مثال جيّد. منذ عام ١٩٦٨م كان العراق بعثياً مثله مثل دول عربية أخرى، وعلى الرغم من مسلَّمة أن عقيدة الحزب البعثي المعترف بها هي القومية العربية؛ سادت القومية العراقية في داخل البلد، وكانت هناك وثبة نحو الإسلام الشعبي، وأخفقت العروبة في توحيد السنّة مع الشيعة الذين يرون دوماً في العروبة مظهراً من مظاهر الهيمنة السنيّة، وهناك الأكراد وهم ليسوا عرباً، ومنذ الاستعمار البريطاني انصهرت هذه الطوائف العرقية فيما أطلق عليه «إيلي كيدوري» اسم (العراق)، واخترع صدّام «الهوية العراقية»، وأراد إنعاش التراث القديم الذي كان إسلامياً في السابق.

وأُمر المثقّفون في عهد صدّام بابتداع فولكلور(مسرح، وفنّ، وأدب) وفقاً للهوية الجديدة، ووضع نظام يستهدف إحياء تاريخ وتراث بابل ـ مثل الأهرامات في مصر ـ مستدعياً الماضي الإسلامي، وكانت هناك محاولات لموازنة النظام الجمهوري الثوري مع الهوية العربية، وهو ما تمثّل في إصدار صحف مثل «الثورة» و «الجمهورية».

هذه الهوية العراقية، على أية حال، كانت مصنوعة وغير أصلية؛ خصوصاً بالمقارنة مع الهوية المصرية الأصيلة، ففي مصر كانت الهوية المصرية مدعومة بالميل نحو الانتماء الفرعوني، وبرز هذا الانتماء فوراً بعد عقد العشرينيات، وكانت هذه الهوية تجد دفعات قوية للأمام من خلال محاولة تغرّيب البلاد وجعلها أكثر تحرّراً على أيدي النخبة المثقفة. ولم تكن الهوية المصرية مجرد أمر تحاول السلطات فرضه كمحاولة من قبل دكتاتور عديم الرحمة؛ لإنقاذ نظام حكمه بعد عقود من الالتفاف حول العروبة التي أخفقت كما هو الحال في العراق. وعلاوة على ذلك؛ فإن مصر مجتمع متجانس لديه تاريخ طويل، ساعد على نجاحه في الاستمرار، تحت مسمَّى شعب وادي النيل؛ بخلاف التشكيلة المتباينة وغير المنسجمة في العراق، ورغم ذلك؛ فإن الاتجاه الفرعوني لم يدم طويلاً، وانتهى إلى الوصول عند العروبة التي ألغيت مشاعر الانتماء لها بعد كارثة ١٩٦٧م، وحل محلَّها مزيج جديد من الهوية المصرية والهوية الإسلامية.

إن العراق به ثلاث مراكز أساسية للقوة هي (الحزب، الجيش، ودوائر الاستخبارات المحلية). وتفتت هذه القوى عقب الهجوم الذي وقع بقيادة الولايات المتحدة، وقد كشف التفكك السريع للنظام التناقض العجيب بين قوّة هذه الدولة الاستبدادية العربية وقدرتها على سحق كل ممارسات المجتمع المدني، وبين العجز المطلق عن الدفاع عن الوطن ضدّ الضغوط والهجمات الخارجية العنيفة. لقد كان اندحار العراق أمام الولايات المتحدة أشبه ما يكون بتفتت الزجاج تحت ضربات المطارق الصلبة.

ويلاحظ أحد المراقبين العرب؛ أنه على الرغم من الكراهية غير المحدودة لدى أكثر العراقيين لعهد «البعث» الإرهابي؛ فإنه لا توجد أية بقية للمجتمع المدني، فمنذ الاستقلال والعرب يخفقون في بناء دول ذات صبغة قومية فعّالة، وبدلاً من ذلك صارت الدول العربية مجرد دول بوليسية، تلجأ إلى استغلال كلّ مصدر للقوة في حماية نظم الحكم من الشعوب، ومع نجاحهم في قهر شعوبهم؛ ظلوا غير قادرين على الإطلاق على حماية بلدانهم ضد أي خطر خارجي.

وفي الحقيقة؛ فإن حلم الدولة القومية التي يكون فيها الانتماء إلى هوية السكّان هو الأساس ويعلو فوق كلّ الهويّات الأخرى، هذا الحلم حتى الآن لم يتحقق في الدول العربية المعروفة بالشرق الأوسط العربي. بينما ـ كما هو واضح ـ هناك اهتمام كبير وحرص على حفظ النظام الرسمي الإقليمي لكل دولة، والتركيز على أن يكون الولاء والانتماء إلى الدولة الإقليمية (مصر، سوريا، . .).

وعلاوة على ذلك؛ فإن بعض المجموعات الأخرى؛ وجدت أنها ستجني مكاسب أكبر من خلال الحفاظ على الانتماء الإقليمي الحالي، فمثلاً الشيعة في العراق، وإخوتهم في لبنان، لهم مصالح خاصة بهم لن تتحقق إلا في ظل بقاء كل دولة على انتمائها لنفسها فقط، والخطر هو أن يجدوا أنفسهم في وسط اتحاد إسلامي عربي أو سنّي؛ حتى لدرجة أن تمكّن إيران ـ التي هي شيعة ـ من الاستيلاء على العراق سيضر بمصالح الشيعة العراقيين، والأمر نفسه يمكن قياسه على الدروز مع العلويين في سوريا. وما زال الالتزام بالمصالح الذاتية السياسية في كل دولة إقليمية على حدة يعلو فوق أي نزوع عاطفي سواء كان عشائرياً أو اثنياً أو طائفياً أو دينياً.

إنّ النهب الذي حدث في العراق يصلح ليكون مثالاً جيداً لشرح هذا المعنى المهم، فإن المتحف الوطني وغيره من المؤسسات العلمانية العامّة التي كانت تتبع النظام الساقط قد نُهبت وخُرّبت، وهذا الدمار أظهر رغبة عميقة في الانتقام، وكشف عن المستوى المنخفض جداً من التبجيل الشعبي للعراق، بلاد ما بين النهرين أو البابلية على غرار «مصر الفرعونية»، وهي الهوية التي حاول نظام البعث العراقي إجبار الشعب العراقي على الاندماج فيها قهراً.

وقد أخبر «سايمون جينكنز»، وهو أحد محرري صحيفة «تايمز»، عما حدث في المتحف العراقي وما حل به من خراب، مثل قطع رأس التماثيل المشهورة للملوك الأشوريين الـ ٢٦، لقد كان العراقيون يسرقون ويخربون المتحف الذي يضم الإشارات على هويتهم وانتمائهم، لقد كانوا يسرقون تاريخهم. ولكن الحقيقة التي أغفلها «جينكنز» هي أنه بالنسبة للعراقيين لم تكن تماثيل الملوك الأشوريين تحمل أية أهمية تاريخية.

فبالنسبة للسنّة؛ ذكرياتهم الغالية تنصبّ على الخلافة العباسية المجيدة، وبالنسبة للشيعة؛ فإن أهم ما عندهم: أضرحتهم المقدّسة بالنجف (قبر الإمام علي)، وفي كربلاء (قبر الإمام حسين)، وقبرا الإمام السابع «موسى الكاظم»، والحادي العشر الإمام «الحسن العسكري».

هذه فقط هي الرموز التاريخية التي تمثل معاناة العراقيين وإيمانهم، وليس ملوك الإمبراطورية الأشورية أو المصنوعات اليدوية البابلية.

وقد بدا السيل الهائل للشيعة الذي تفجرت معه مظاهر إيمانهم في كربلاء ـ وكان أمراً غير وارداً تحت حكم صدام ـ جارفاً بعد أن احتلت الولايات المتّحدة العراق مباشرة، وذلك بمناسبة إحياء اليوم الأربعين من ذكرى موت الإمام «حسين»، وكان ذلك الحدث إشارة حقيقية إلى الانتماء والثقافة الحقيقيين اللذين يكوّنان الذاكرة الجماعية العراقية.

ورغم نهب المتحف العراقي الوطني؛ فلم تكن هناك أية احتمالات لنهب المساجد أو الأضرحة المقدّسة أو أي مكان آخر مشابه، فلو كانت يد واحدة امتدت بالسرقة إلى هذه الأماكن؛ فإن العقاب كان سيكون فوق التصور من قِبَل رجال الدين، حتى عندما قام العراقيون بإرجاع بعض الكنوز المنهوبة من المتحف الوطني لم يكن ذلك إلا استجابة للنداءات الموجهة من زعمائهم الدينيين.

بعد تفكك النظام العراقي ظهرت الهويّات الأولية الحقيقية بشكل واضح، وكان السبق للهوية الدينية والقبيلة أكثر بكثير من الهوية القومية والعشائرية.

وهنا يجب تأكيد أن الدول العربية ليست جميعها بهذا الأسلوب، فالهوية المصرية مثلاً شديدة الرسوخ والثبات في نفوس المصريين.

الحديث عن الأردن والفلسطينيين أكثر حساسية بمراحل؛ فكثيراً ما يقال إن الشقّ الأردني الفلسطينيّ موجود في الأردن، لكن ربّما كان هذا الانقسام مبالغاً فيه؛ وذلك لأنه يُعتقد أن الأردنيين عندهم خلفيات ثقافية وتاريخية أكثر من الفلسطينيين. وفي النهاية نجد أن الغالبية العظمى منهم مسلمون سنّة، والأقلية تكون في أغلب الأحيان من المسيحيين الأرثوذكس. وبالنسبة للمسلمين والمسيحيين على حدّ سواء العربية هي اللغة الأم.

ونجد أن الأردنيين والفلسطينيين مختلطون من الناحية الاجتماعية، ويتزوّج بعضهم من بعض طوال الوقت؛ المسلمون مع المسلمين والمسيحيون مع المسيحيين. إنّ الانقسام الديني أكبر بكثير من الانقسام الذي يتمثل في النواحي الاجتماعية والثقافية والنفسية بين الفلسطينيين والأردنيين.

ولذلك فإن القومية الإقليمية بين الأردنيين والفلسطينيين هي أمر واقعي ملموس جداً، لكنه ما يزال طبقة ظاهرية معاصرة؛ بالمقارنة مع العمق التاريخي للهويّات العشائرية والاثنية والدينية التي ترجع جذورها إلى القرن السابع، وفي بعض الأحيان إلى ما قبل ذلك.

لقد كان تأثير الحرب في العراق ظاهراً كمثال جديد على تقوقع كل دولة عربية على نفسها، وكيف أنها تتصرّف وفق مصالحها الذاتية فقط. كما أظهر نموذج العراق على الجانب المقابل قابلية محو الولاء للدولة،

وتعارض الولاءات التي يشكّل تصادمها دليلاً قوياً على حالة الضعف.

أما بالنسبة إلى المسألة الفلسطينيّة؛ فإنها، مثل العديد من الأمور الإقليمية الأخرى، يجب أن ينظر إليها من خلال عدسة التطورات التاريخية التي تبعت عام ١٩٦٧م وحتى الوقت الحاضر، وكيف تطور الحال من قمة الثورة الوطنية الفلسطينيّة؛ من خلال العمل الفدائي والمقاومة المسلحة في أواخر الستّينيات، إلى ما أصبحت عليه الأوضاع اليوم.

بالنسبة للفلسطينيين المهزومين الذين دمرت اقتصادياتهم، وبعد أن افتقدوا أي جهد عربي لدعمهم؛ كان الأمر مثل نكسة ثانية لهم، وإذا كانت حرب ١٩٦٧م نقطة تحوّل شديدة الحساسية؛ فإن الحرب في لبنان في عام ١٩٨٢م كانت نقطة تحول مهمة هي الأخرى، فمنظمة التحرير الفلسطينيّة التي كانت قد طُردت من الأردن في عام ١٩٧١م؛ فقدت قاعدتها المستقلة التي كانت تشن منها عملياتها، ألا وهي بيروت، بعد العملية الضخمة التي تمت في لبنان في ١٩٨٢م لقد كانت عملية لبنان ١٩٨٢م نكسة قوية أجبرت منظمة التحرير الفلسطينيّة على الدخول في طريق الانحدار التدريجي، وانتقل مركز الجذب الفلسطيني من حالة الشتات إلى التمركز في الضفة الغربية وغزة، وهو ما تمت ترجمته من خلال ظهور العمل السياسي الفلسطيني. وعلى الرغم من ذلك فقد كان تمركز الجذب الفلسطيني في الضفة والقطاع، هذه العملية أثمرت انتفاضة عام ١٩٨٧م؛ عندما قادت المقاومة الفلسطينية في الضفة الغربية وغزة الكفاح الفلسطيني ضدّ إسرائيل للمرة الأولى.

منظمة التحرير الفلسطينية راقبت هذه الانتفاضة من الخطوط الخلفية، وخافت بشدة من الخطر الذي بات يهدد مكانتها في السبق إلى تبني الشؤون الفلسطينيّة، ورغم ذلك حصدت المنظمة المكاسب السياسية الدولية، والثمن كان كفاح إخوتهم ضدّ الإسرائيليين. ولكن في أوائل التسعينيات كانت الانتفاضة تلفظ أنفاسها، وظهرت التطوّرات الأخرى على الصعيدين الدولي والإقليمي، وكل ذلك وضع منظمة التحرير الفلسطينيّة تحت ضغط كبير، ففي ذلك الوقت؛ انتهت الحرب الباردة بتفكك الاتحاد السوفييتي، وجاءت الهجرة اليهودية الهائلة من الاتحاد السوفييتي السابق لتهدّد بإمالة الميزان السكّاني في الضفة الغربية وغزة لمصلحة إسرائيل؛ ونجحت الولايات المتّحدة في هزيمة العراق عام ١٩٩١م إبان حرب الكويت. ومع انطلاق عملية السلام في مدريد في أكتوبر عام ١٩٩٩م؛ شعرت منظمة التحرير الفلسطينيّة بالخوف الشديد من حالة التهميش التي ستنشأ مع إدخال القضية الفلسطينيّة في مفاوضات داخل ممرات الدبلوماسية الدولية؛ في عصر الضعف المطلق سواء لدى الفلسطينين أو العرب عموماً.

ياسر عرفات، وفي ظل إحساسه بأنّ الزمن يعمل ضدّه، وفي ظل حاجته الملحّة إلى دخول مركز الأهمية السياسة الفلسطينيّة في الضفة الغربية وغزة، قرّر قبول «اتفاقيات أوسلو» في عام ١٩٩٣م؛ لكن في نهاية التسعينيات تغيرت العديد من معايير واعتبارات وحسابات عرفات بشأن عنصر الزمن تبعاً لذلك.

كان عرفات يحاول إحكام قبضته على الجانب السياسي في السلطة الفلسطينية، ولكن الهجرة السوفييتية

إلى إسرائيل كان لها تأثيّر في الميزان السكّاني بين اليهود والعرب في الضفة الغربية وغزة، حيث اختار كلّ اليهود السوفييت الاستقرار؛ علاوة على ذلك فإن الهجرة السوفييتية أثّرت في الميزان القيمي للسكان بين اليهود والعرب في كامل المنطقة الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط ونهر الأردن؛ خاصة مع تدفق الفلسطينيين بشكل نهائي قبل بضعة سنوات من نهاية التسعينيات، كما أن العراق بدا على قمة الاستعداد لبذل كل الجهد من أجل إعادة كسب تعاطف الدول العربية؛ خاصة بعد المقاطعة التي واجهته من قِبَل المجتمع الدولي، وقد تحدّى صدّام الولايات المتّحدة من خلال تشجيع العناصر الراديكالية عبر الحدود.

وفي صيف عام ٢٠٠٠م انسحبت إسرائيل من جنوب لبنان؛ مما أعطى انطباعاً بأن إسرائيل القوية أصابها التعب، وتولد لدى عرفات إحساس بأنه مضطر هو الآخر لعقد صفقة مع إسرائيل، واختار أن يستخدم القوة لإجبار إسرائيل على قبول الشروط الأفضل بالنسبة للفلسطينيين، وبشكل خاص فيما يتعلق بقضيتي القدس واللاجئين، ولكن استخدام القوة من جانب الفلسطينيين كان خطأ كارثياً، وكان الأسوأ في تاريخ الفلسطينيين منذ ما حدث لهم عام ١٩٤٨م، ففي ظل حالة الفوضى التي يعاني منها العرب سحقت إسرائيل الانتفاضة المسلحة الفلسطينية بشكل عملي ملموس، ويمكن أن يكون هناك الآن بعض الاعتقاد في عقول العديد من الفلسطينيين والإسرائيليين؛ بأن الجهد الفلسطينيّ ـ والذي هدف إلى إجبار إسرائيل على قبول الشروط المأمولة ـ وصل إلى طريق مسدود. وقد أثبت المجتمع الإسرائيلي أن لديه مرونة وقدرة على التجاوب أكثر مما كان يظن الفلسطينيون، حتى مما كان يظن العديد من الإسرائيليين أنفسهم.

ولقد أخفقت تماماً الجهود الفلسطينية الراغبة في كسر الروح المعنوية الإسرائيلية من خلال العمليات الإرهابية، وقام العرب بخذلان الفلسطينيين مرة ثانية، وتبخرت كل أحلام الفلسطينيين التي كانت تدور حول أنّ حربهم مع إسرائيل يمكنها جرّ العرب إلى دائرة الصراع، لقد كان الفلسطينيون خاطئين في هذا الشأن، حتى إن المساعدة المالية التي قدمها لهم العرب كانت زهيدة للغاية.

وفي النهاية أراد الفلسطينيون بشدّة أن يسحبوا المجتمع الدولي للوقوف إلى جانبهم، ولكن هذا لم يتحقّق أيضاً، فقد شوهت الحرب الإرهابية التي تبناها عرفات صورته في نظر المجتمع الدولي.

ومع أن رؤية الرّئيس بوش وما أقرته اللجنة الرباعية يتحدثان عن دولة فلسطينيّة مستقلة، وهو الأمر الذي كان الفلسطينيون يطالبون به؛ إلا أن الفلسطينيين لا يريدون إقامة هذه الدولة وفق رؤية المجتمع الدولي، ولكن يريدونها وفق رؤيتهم التي تتلخص في فرض هذه الدولة على إسرائيل بالعنف.

والحقيقة أنه لم يتحقق أي هدف من أهداف من خططوا لهذه الحرب الإرهابية الفلسطينية ضد إسرائيل، وهذا هو المعنى الحرفي للإخفاق.

عرفات بقيادته للفلسطينيين في الحرب الإرهابية الحالية؛ لم تعد لديه أيّة مصداقية يمكن أن يكون قد

أحرزها في السابق مع الإسرائيليين، وموقفه الحالي يشبه المأزق الذي وقع فيه الزعيم الأول للحركة الوطنية الفلسطينيّة الحاج «أمين الحسيني» مفتي القدس، حيث تحالف «حسيني» مع النازيين في الحرب العالمية الثّانية، وهو الأمر الذي كلّفه شرعيته الدولية، ثم بعد ذلك وقع في خطأ أسوأ عندما قاد شعبه بشكل متهور للكارثة التي حلت بهم في عام ١٩٤٨م.

عرفات سار على هذا الطريق نفسه تقريباً، فالحرب الفلسطينيّة ضدّ إسرائيل أدّت إلى الانتقام الإسرائيلي الهائل الذي أسفر عن إصابة السّلطة الوطنية الفلسطينيّة بالشلل، وعرقل إمكانية أن يحيا السكان الفلسطينيّون حياتهم اليومية بشكل معتاد ودمّر اقتصادهم. وعلاوة على ذلك؛ أدّت الحرب الإرهابية الفلسطينية إلى ازدياد كبير في شعبية «حماس» على حساب «فتح». وأصبح الفلسطينيون الذين يقومون بعمليات التفجير الانتحارية في بؤرة الاهتمام الدولية. وقد دانت منظمة العفو الدولية ومنظمات الدفاع عن حقوق الإنسان هذه التفجيرات، واعتبرتها جرائم ضدّ الإنسانية؛ رغم أن هذه المنظمات تدين إسرائيل بانتظام.

تعيين أبي مازن «رئيساً للوزراء» بالسّلطة الوطنية الفلسطينيّة كان بشرى وخطوة رئيسة نحو الإصلاح السياسي الفلسطيني، والذي طال انتظاره على أمل أن يقلل من سيادة عرفات السياسية.

ولم يكن الضغط على عرفات حتى يتنحى جانباً ويفسح المجال لغيره نابعاً من إسرائيل والولايات المتحدة واللجنة الرباعية فقط، ولكن أيضاً من قِبَل بعض الأجيال الجديدة في «حركة فتح»، حيث كانت هناك حالة عامة من السخط والتذمر حيال سياسة عرفات، والخسائر التي تتسبب فيها عدم قدرته على السيطرة على مجريات الأمور.

وكان الإسرائيليون والأمريكان وأعضاء اللجنة الرباعية يفضّلون أن يكون الشخص الذي سيأتي به التغيير من جيل جديد، حيث كانت إحدى أخطر المضار في التعامل مع عرفات؛ هي أنه ينتمي إلى الجيل الذي لا يزال يحمل ذكريات تاريخية وعمقاً عاطفياً ووجدانياً تميز به جيل اللاجئين الأوائل في مرحلة ١٩٤٨م.

كان عرفات محكوماً بحالة نفسية تجبره على رؤية الأمور من خلال منظور تصحيح الأوضاع، وعدم التنازل عن رفع الظلم التاريخي الذي وقع على الفلسطينيين عام ١٩٤٨م، فلم يكن الأمر سيتوقف عند الحصول على دولة مستقلة؛ بل كان سيتعدى هذا الهدف، وذلك سر الرغبة الملحّة في استبدال شخص بعرفات ينتمي إلى جيل آخر.

ويفضل الإسرائيليون التعامل مع قادة فلسطينيين من الضفة الغربية وغزة، تكون لديهم معايشة كاملة مع الأوضاع الداخلية؛ بحيث تكون هي على قمة أولوياتهم؛ بدلاً من التعامل مع من يهتم أساساً بقضية اللاجئين الفلسطينيين، وذلك لأن إسرائيل ليس لديها أي حلّ حقيقي لمشكلة اللاجئين المشردين الفلسطينيين يمكن أن ترضي التطلّعات الوطنية الفلسطينيّة.

إسرائيل على الجانب المقابل؛ تقبل أن يعيش الفلسطينيون في الضفة الغربية وغزة؛ وعليه فإن تفضّيل

التفاوض مع من يمثلون هذه المناطق هو الوضع الطبيعي بالنسبة لإسرائيل.

لكن أبا مازن لا يمكن اعتباره ممثلاً للشعب الفلسطيني في الضفة أو غزة، وكذلك هو لا ينتمي إلى الجيل الجديد الذي لا يحمل ذكريات الماضي وعواطفه، إن أبا مازن ببساطة هو نائب عرفات منذ زمن، وهو في أواخر الستينيات من العمر، وأحد الحرس الأساسي القديم في منظمة التحرير الفلسطينية.

أبو مازن ولد في صفد في منتصف الثلاثينيات من القرن الماضي؛ مثله مثل عرفات يعبر عن شتات اللاجئين الفلسطينيين وليس من أبناء غزة أوالضفة. أبو مازن أيضاً هو أحد الأعضاء المؤسّسين لفتح، وخدم لعدّة سنوات في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية.

وعلاوة على ذلك؛ فإن الموافقة على اختيار رئيس الوزراء؛ كانت لا بد أن يقرها أولاً المجلس المركزي لمنظمة التحرير الفلسطينية، وبعد ذلك يقرها المجلس التشريعي التابع للسّلطة الوطنية الفلسطينيّة.

ورغم أن هذه الإجراءات رمزية إلا أنها شديدة الأهمية، فهي تعطي المؤشرات بأن منظمة التحرير الفلسطينية تظل هي الممثل الشرعي الوحيد لكلّ الفلسطينيين حيثما وجدوا، وتظل كذلك هي المصدر الأعلى للسلطة السياسية لدى الشعب الفلسطيني.

وهذا يعني أن قضية الضفة الغربية وغزة لن تكون وحدها هي المطروحة على المنضدة في التفاوض مع إسرائيل، ولكن سيتم طرح القضيّة الفلسطينية بكل أبعادها التاريخية.

ومن ناحية أخرى؛ يلاحظ أن صعود أبي مازن إلى دائرة الأهمية يمثّل تغييراً إيجابياً لا يمكن إغفاله؛ حيث كان محمود عباس أحد مسؤولي منظمة التحرير الفلسطينية الذين اشتركوا في المحادثات السرّية التي قادت إلى توقيع اتفاقيات أوسلو، وعلى الرغم من أصوله وجذوره؛ فإنه يبدو مؤمناً بقوة في ضرورة التوصل إلى تسوية مع إسرائيل.

وبالنسبة للأهمية المعاصرة لأبي مازن؛ فقد تمثلت في تمكنه من كسب ثقة جمهوره الخاص به في غزة، ففي نوفمبر ٢٠٠٢م شنّ حملة شجاعة وعنيفة انتقد خلالها السياسة الفلسطينية التي تواصلت على مدى السنتين السابقتين، وأكد على أن الشعب الفلسطيني لن ينجز أي شيء مفيد إذا استمر في عسكرة الانتفاضة.

وأشار إلى أن الفلسطينيين كانوا على مقربة من تحقيق حلمهم ونيل دولة مستقلة قبل عامين، ولكن طريق العنف الذي حدث أدى إلى الإخفاق وانهيار الأحلام.

وأوضح أنه بدلاً من استخدام الحنكة السياسية الفلسطينية في إجبار رئيس الوزراء الإسرائيل «أرئيل شارون» على الجلوس على طاولة المفاوضات؛ لجأ الفلسطينيون إلى استخدام القوة والسلاح، وهي معركة طالما امتلك الإسرائيليون فيها اليد الطولى، ليس فقط ضد الفلسطينيين ولكن أيضاً ضد العرب بوجه عام، وأكد أن

السّلطة الوطنية الفلسطينيّة في حاجة ماسّة إلى إجراء إصلاحات وإعادة توجيه المسار.

لقد كانت هذه الكلمات واقعية وصادقة، وتعبِّر عن حقيقة أن الفلسطينيين يحتاجون بشدّة إلى التخلص من المأزق الذي وقعوا فيه للآسف. ورغم أن أبا مازن ليست لديه سلطة مستقلة فإنه يملك الدعم القوي من الشخصيات البارزة في فتح؛ باعتباره الفارس الجديد الذي سيحل الخلافات التي كانت بينهم وبين عرفات.

لكن عرفات كان في وضع الإجبار على قبول مثل هذا التحرّك من قِبَل الضغوط الداخلية والإلحاح الخارجي، وظل يكافح بكل ما يملك من قوة بهدف الحفاظ على ما تبقى من سلطته الضعيفة.

إن عرفات خبير سياسي ومحتال ولديه التجربة والإصرار، ولم يكن من المحتمل أن يستسلم لمحاولات أولئك الذين يرغبون في التعجيل بنهايته. علاوة على ذلك؛ كان عرفات يملك الدعم الشعبي الكبير، واعتمد على أن هناك معارضة واسعة الانتشار ترفض تعيين رئيس وزراء؛ على اعتبار أن هذا المنصب سيخدم فقط المصالح الخارجية ويستجيب للضغوط الدولية.

«حماس» لم تكن مرحِّبة بتعيين أبي مازن أو بأي رئيس وزراء؛ خصوصاً بعد الروح التصالحية التي اتسم بها في قمّة العقبة في أوائل يونيو ٢٠٠٣م، وفي النهاية أصبحت «حماس» تعارض وبشكل قاطع كل ما يعرضه أبو مازن.

وبدا أنه سيكون من الصّعب جداً تنحية عرفات إلى جانب الطريق وإزاحته عن بؤرة الأحداث، حيث لم يظهر أبو مازن في صورة المنافس القوي على القيادة إلى جانب الزعيم الفلسطينيّ التاريخي، وبات من الواضح أن تعيينه لن يضع نهاية عرفات بأي شكل من الأشكال. وحتى إذا كان الواقع يقول إن عرفات بدأ يخطو في طريق بداية النهاية؛ فسيمضي وقت ما قبل أن تفكر إسرائيل جدياً في مناقشة رسم نهاية للنزاع مع الفلسطينيين الذين تُحكم قيادتهم قبضتها على السلطة.

في هذه الأثناء أصبحت الحرب الفلسطينيّة الإرهابية تفقد الزخم المعنوي، والذي تحول إلى التهديد الذي يحيق بدولة عربية أخرى (العراق)، وكما حدث في نكبة ١٩٤٨م؛ فإن الفلسطينيين بشكل خاص والعرب عموماً ظلوا مشدوهين محدقين في الإخفاق والمرار والهزيمة.

وبسبب ما حدث في العراق؛ قبل الفلسطينيون وقف إطلاق نار كوسيلة لوقف الحرب التي بينهم وبين الإسرائيليين، وإنقاذ أكبر عدد ممكن من الأرواح، ومن أجل إيجاد فرصة لالتقاط الأنفاس وتجميع الصفوف من جديد.

إن الأوضاع الحرجة التي تمر بها المنطقة في الفترة الحالية تُوجد إمكانية لتفعيل فكرة إجراء حوار ومفاوضات، ولكن هناك خطر من أن الراديكاليين سيستغلون هذه الفترة في التقاط أنفاسهم والإعداد لمرحلة جديدة من العنف.

وفي الوقت الذي يرىٰ فيه أمثال أبو مازن أن الفلسطينيين في حالة ضياع وتيه؛ تصرّ «حماس» و «الجهاد الإسلامي»، وبعض أجنحة «حركة فتح» علىٰ إنكار ذلك تماماً.

وهذه الحركات تفعل مثل أسامة بن لادن، تعبِّر عن الغضب والرغبة في الانتقام من كل صور الحضارة كرد فعل، إن محاولاتهم المتمردة للتغلب علىٰ الرؤية السوداء للمستقبل لن تستطيع أن تغيّر العالم، ولذلك هم يعيشون في مناخ الموت والدمار ليحاولوا إرضاء أنفسهم بتعذيبها من خلال المضي في هذا الطريق، ولكن تركيزهم علىٰ فكرة مجيء عالم آخر يعوضهم الحالة التي هم فيها الآن؛ لن يخرجهم أبداً من العالم الذي يعيشون فيه بالفعل.